

## رثاء الأستاذ الأكبر

للاستاذ عباس محمود العقاد

## مصطفى عبد الرازق

الشيخ الأكبر الذى فقدناه !

للاستاذ عبد المنعم خلاف

عصف النوى بكل قلب خائف  
من راب سمع السامعين بخطبه  
ومن استقام على الفضيلة والتقى  
ومن ارتضى شيم الثبات لزيه  
ومن اتقى حسد الحسود بخير ما  
نظره كسارى النجم مؤتلق على  
بلغ المدى فى الدين والدنيا معاً  
أسفاً عليه اركم حزين آسف  
ماذا عليه لو استتم بقاءه  
ذاك الذى كلت جوانب فضله

من مثل نابغة النوابغ مصطفى  
رجاه والده الكريم لغاية  
رباه حبراً للديانة فاستوى  
ونماه فى حجر المباداة مسلماً  
وأعده للمسلم فاستوفى به  
وغذاه بالتبيان فانقادت له  
وهده للإحسان فهو وليه  
ورجاه للملياء فاستبق الخطى  
لا وانياً عنها ، ولا متمجلاً  
وكانه وعد الأمين وفى به  
لو لم يكن قدراً قضاء لما قضى  
إن الطالع لا يقر قرارها

يا آخذاً من كل شيء صفوه  
حتى المحول بلغت غاية حظه  
لم أتق قبلك من نبيه آمن  
تلك الدماخ ما امتزجن بدمعة  
ولتلك من رضوان ربك آية  
فادخل حظيرة بخير خلائق  
ما الموت با كشف كل حقيقة

أيها الروح الزكى الكريم الذى حبسه الموت عن كل قلب  
عرفه كما يُحبس النسيم الرخى عن قلب المحرور الظمان !  
أيها العقل الكبير الذى حول فى نفسه ما عرفه من هدى الدين  
وفلسفة الرأى الصحيح إلى حكمة الخلق الراجح واللفظ التزيه  
والعمل البرور ، فلم يرفيه الناس ذلك التناقض البغيض بين  
حكمة القول وطيش العمل ، وعلم الدرس وجهل العيش ، بل  
رأوا دينه وعلمه وحكمته كماء الشجرة الطيبة يجرى فيها  
عنصراً أصيلاً يتحول ألباباً حياً وورقاً حريراً ندياً وزهراً شديداً  
ومراً شهيماً يملأ الحواس والإدراك وحيه وتمبيره ، لا كالماء فى  
شجرة الحنظل يتحول فيها إلى مرزقاق ، أو فى دم الأفي يتحول  
إلى سم مدّوف كما يتحول العلم فى بعض العقول !

ويا أيها الواحة المنفضلة الوارفة التى كانت تمشى هادئة فى  
مدّ الرمال الطاغية ، رمال الخيلاء العلمية المزهدة والتقمعات  
الكلامية الجوفاء ، والدعاوى العريضة والمزاعم النادية على نفسها  
مناداة التاجر فى الأسواق !

ويا أيها السكينة النفسية التى كانت تشع على من يقرب منها  
ألواناً من الرضى والطمأنينة ، وتدخله إلى رحاب عالم من السكون  
والصمت التحدث !

ويا أيها « القطة الفنية » الباقية من الشرق الكريم فى  
وجوهه الحية وأنفاظه العفيفة وثيابه السائرة التى فيها شخصيته  
وأبوته وورقه !

ويا أيها الصوفية العقلية العملية التى تربى مُريدَها بالأدب  
الرفيع يتحلّى به الكبير أمام الصغير فيأخذُه عنه بدون قوالب  
ألفاظ وفلسفات ومجادلات ، بل بذلك السر الخفى الذى يعطيه  
الآباء الحكاء للأبناء !

ويا أيها الكرمات التى لا حد لما كانت تبذله من جاهها  
ومالها وحسن إقبالها على المحتاجين إلى رها ، كأنها ينبوع  
الفياض فى هدوء بين قسوة الظروف وشح الأنفس !

وقائع شخصية له من مكارم هذه الذات ، أدبية أو مادية ، ولذلك أقترح أن تدون هذه المكارم لتضم إلى الذخور المأثور عن أجواد العرب وساداتهم وعلماء الملين الأبرار ، فإن في هذا التدوين ثروة تضاف إلى عبقرية الخلق التي هي أعظم المبقرات في الإنسان على رغم ما يشاع عن عبقرية الفكر أو عبقرية الفن ، لأن عبقرية الخلق هي (فن الحياة) الذي ينمو في ظلاله الاجتماع الإنساني بما فيه من نتاج فكري وفني وعملي ، فهي عبقرية أشبه شيء ، بالأمومة المضحية القادية المطية من غير أخذ . وهي عبقرية يختص الله بها قلوب طراز من الرجال يصح أن يسمى (الرجال الأمهات) ! لشدة جهم لتنع الإنسانية وتغانيهم في خدمتها وبرها . أيها الروح الزكي الذي كان أباً وأخاً وصديقاً للجميع ؛ إن القوم اجتمعوا ولا يكرموا ذكراك ، فإنها عنصر من مكونات معنى الكرم ذاته في أفهام الناس في هذا العصر ... ولكنهم اجتمعوا ليكرموا أنفسهم بمحدث ذكراك . ولو أرادوا أن يكرموك لأدركوا منك في حياتك كامل ما أدركوه بعد فقدك ... ولكنهم اعتادوا مع الأسف الشديد ألا يكرموا الفضائل إلا بعد موت الفاضل ... لأن انتقال الموت بفجأهم ويفجهم فيحسون أن الأرض تزلزل تحت أقدامهم بعد أن يتحطم قلب من أقطاب حياتهم عليها ... وكأوا يدورون حوله وهم لا يشعرون ...

فتي ترشد الأم الشرقية فتتمتع بثراها الناضجة التي أودع الله فيها سر النوع البشري قبل عطيا أو اختطافها لماذا لا ندرك منازلهم في قلوبنا إلا بعد قدومهم ، لماذا لا نسرهم في حياتهم بالاستجابة لداعية الخير في نفوسهم حتى يمضوا مطمئنين إلى بقاء الخير والبر بدمهم ؟ لماذا لا تكون الداعية قبل المرائي ؟

ما صدق تلك الكلمة التي قلها الأول :

لا أعرفنك بيد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي أ  
وما صدق قول الآخر :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى ما دام حياً فإذا ما ذهب  
لج به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب أ  
فألهم ارشدنا وبصرنا حتى ندرك أن أعظم ثروات الأمة هم  
رجالها الأفاضل في الخلق والعلم فنتفع بهم ونتمتع بمبقراتهم ،  
ولا نضيمهم ثم نبكي عليهم !

روح الله روح الفقيه وأرواح أجيائه ، وأحسن العزاء فيه  
للجميع فإنه فقيه الجميع .  
عبر النعم مفرف

ويا أيها التقاليد الصالحة العارفة بما عند قومها من معامد ، فهي معتزة بها مستمكة براها في آداب البيت والزي واللهاجة وإن اختلف الزمان واختلف الأوضاع وطفت عوامل التحال من الواجبات والتقاليد الكريمة على البيوت والألسنة والحرمان أ  
ألا أيها الماني والموالم التي كانت بحسمة في هذا الجسم المهذب الحواشي الدمث الجوانب الذي كان الكمال والسمت يقيده في الحركة والاذنة والكلمة ... هل يملك مثل ممن كان يعيش معك فترات يجدد فيها ذكرى والده في صورتك وروحك ويحيي الوفاء الذي كان بينكما ، إلا أن ينظر الآن من وراء الغيب إلى هذه الحفرة التي أسلموا إليها ذلك الجسم الزكي الحبيب الذي كان مجتلاك أيها الماني ؟ وماذا بنى النظر في تلك الحفرة التي مضى إليها كل من كان ويمضى إليها كل من هو كائن في أبد الأبدين ؟ ... هل ينفي إلا الحسرة على الفقد وضياح ما في يد الإنسانية من تلك الماني العزيزة النفيسة التي هيئات أن يجتمع في ذات إلا في خطافات زمنية وذوات معدودة يجود بها الزمان على مجل وشنوذ ؟ إن هذه الذوات التي تجتمع فيها هذه الخلال إنما هي الكتب الحية والكلمات المجلسة التي تفسر الأفسار والأسلام التي يقرؤها القارئون في عالم الكتب المسطورة فيظنونها مخلوقات من عالم الأطياف لا حياة لها على هذه الأرض حتى يروا النموذج في شخص حتى فيصدقوا ...

وكم يرى الناس من عالم يعلأ طباق الفكر عدلاً ، ولكنه لا يعلأ الفجوة الواعية الحساسة الصادقة في النفس أ لأن علمه منفصل عن ذاته وحياته ، فهو في فكره كالشيء المتنتى في يده ، لم يجر من ذاته مجرى الدم في قلبه والرأى في عقله والخلق في سلوكه فهو حقيق ألا يرى الناس فيه قدوة تهدي أرواحهم الفلقة : وإنما ينظرون إلى علمه بإعجاب ، كما إعجابهم بالشعور أو الحماوى !

وكم رأى الناس من روجي لا يحسن الكلام ولكن يحسن السلوك والعمل وتفيض يدها بالخير وقلبه بالمطف فيكون فيه للناس علامة مشيرة أبداً إلى منطقة النجاة من لجج الرحل والندس التي تقطع السبل على الرجل المتطهر أ فإذا اجتمع العلم والروح في شخص كان فضل الله عليه عظيماً ، فإذا كان ذلك على غنى وجاء لرجل يؤدي زكاة النفس والجاء بالكيل الوافي كان ذلك فضلاً عظيماً مضاعفاً يُعتبر نُدرة تجتمع عليها القلوب بالحد .

أنا واثق أن كل فرد ممن اتصل بالقييد يستطيع أن يسرد